إعادة فلسطين إلى رأس الأجندة الدولية

خالد الحروب

صمود غزة ومقاومتها على رغم الاكلاف الغالية افشل اهداف إسرائيل بشكل فادح واربك سياسييها، والاهم انه فاجأ الجميع بإعادة فلسطين الى راس اجندة القضايا الاقليمية والدولية، بعد ان أزيحت جانباً. الملفات والقضايا المفتوحة والنازفة في المنطقة في السنوات الاخيرة همشت فلسطين والفلسطينيين وقضيتهم، ولا تحتاج الى تعداد او توصيف. بيد ان ما يحتاج الى إعادة تذكير هو الكيفية التي آلت بها فلسطين لان تصبح «واحدة من القضايا» الكثيرة اقليميا بعدما كانت القضية الاولى، وكيف أزيحت عن جدول اولويات الشأن الدولي. بل وربما الاكثر لفتا للنظر كيف تضاءلت حتى على الاجندة الاسرائيلية لتنزلق من قضية ملحّة على مستوى السياسة والاستراتيجية الاسرائيلية العامة، إلى مجرد قضية من قضايا التنافس السياسي والمزايدة الانتهازية بين الاحزاب المتصارعة على السلطة. خلال اكثر من عشرين سنة منذ اتفاق اوسلو تحقق لإسرائيل ما لم تكن تحلم به من تهميش خارجي للقضية الفلسطينية، وتحويلها من مسالة احتلال عسكري واستعماري، إلى نزاع بين كيانين سياسيين (اسرائيل والسلطة الفلسطينية) تتكفل بحله «عملية سلام» مفتوحة إلى الابد! وداخليا تمكنت من شطب الكفاح المسلح من اجندة قطاع عريض من حركة النضال الوطني الفلسطيني. تعاضد الوضع العربي الذي التصق في منحنى انهيار متدحرج منذ اتفاق كامب ديفيد، ثم حرب الخليج الاولى، وتسارع في الانهيار مع غزو صدام حسين للكويت، وبقي تسارعه حتى الآن. في العقدين العجاف المذكورين راهن الفلسطينيون على مسار المفاوضات بعد ان قدموا تنازلات تاريخية لم يتوقعها احد، كل ذلك ضمن «حاضنة» من التنازلات العربية والتأكيدات على ان المفاوضات هي الاستراتيجية العربية الوحيدة لحل الصراع مع اسرائيل. وقدمت الدول العربية مجتمعة عرضا لم يحلم به قادة الصهاينة منذ تأسست اسرائيل وتمثل في المبادرة العربية، والتي دعت إلى اعتراف وتطبيع كاملين مع اسرائيل مقابل تطبيق حل الدولتين. اسرائيل رفضت كل ذلك، إذ كانت ولا تزال تسكرها نشوة التفوق العسكري على العرب، وتعتاش على ضعفهم المتواصل ضعفا. وكان حظ الفلسطينيين من ذلك الضعف نصيب الأسد وتكرس بالانقسام بين «فتح» و«حماس»، والضفة وقطاع غزة منذ عام 2007.

بالتوازي مع ذلك، استمر مشروع التوسع الاستيطاني في الضفة الغربية والقدس وتعاظمت «دولة المستوطنين» ونفوذهم واستعمر نفوذ اليمين الاسرائيلي وقوى التطرف الديني، وتآكلت القناعات الاسرائيلية الهشة اصلا بفكرة «حل الدولتين». عمليا، لم يكن هناك اي ضاغط حقيقي على اسرائيل كدولة ومجتمع سياسيين وحزبيين للنظر جديا في «المسألة الفلسطينية»، ذلك ان كل الشؤون الاسرائيلية الحياتية مستمرة، والاقتصاد مزدهر، والشواطئ مزدحمة بالمصطافين! تحولت القضية الفلسطينية والفلسطينيون بسبب ذلك من مسألة جوهرية متعلقة بمصير الوجود اليهودي في ارض فلسطين، الى مجرد كرة سياسية في الملعب الحزبي الاسرائيلي، وعادة ما تستخدم انتهازيا بهدف تجميع الاصوات الاكثر تطرفا. بمعنى ما، تحولت فلسطين والفلسطينيون الى اداة وظيفية للتظاهر والتنافس الحزبي حيث يزعم المتنافسون ان كلا منهم اكثر حرصا على «امن اسرائيل» من الآخرين. وقد تفاقمت هذه الآلية في السنوات الاخيرة، كما تفاقم شعار «امن اسرائيل»، وهو الذي تم تضخيمه اصلا لغايات انتخابية وغدا وكأنه وحش حقيقي. صارت اسرائيل وهي القوة الاكبر في المنطقة هي الاكثر خوفا وتوجسا على وجودها، وفي خضم تفاقم الخوف المصطنع، والتنافسات الحزبية، صارت تطرح شرطا اضافيا على الفلسطينيين وهو «يهودية الدولة».

جاءت سلسلة الحروب على قطاع غزة (2009، 20012، 2014) في السياق المذكور، التباهي بمن يستطيع توجيه ضربة اكبر الى الفلسطينيين وكسر ارادتهم، والعزف على وتر «امن اسرائيل» من منظور اوسع، جاءت تلك الحروب لإنهاء آخر معاقل الكفاح الوطني الفلسطيني المسلح، و«قص العشب» كما كان يكرر السياسيون الاسرائيليون. كلما انخفضت شعبية الائتلاف الحاكم في اسرائيل، او تردّت صورة رئيس الوزراء، يلتفت حوله فلا يجد سوى قطاع غزة ليوجه اليه ضربة عسكرية تحسن من وضعه الانتخابي – مرة اخرى تقليص الفلسطينيين الى مجرد اداة في التنافس الحزبي.

في الحرب الاخيرة، انقلب السحر على الساحر وتلاحقت مفاجآت لم تكن مُنتظرة، وعلى عكس ما هو متوقع تماما. فهنا توقع نتانياهو ان يخوض حربا من ايام عدة تكون نزهة حقيقية بالمقارنة مع مغامراته السابقة. فهذه المرة كانت كل الظروف مشجعة: العرب في أسوأ اوضاعهم التشتتية، ومصر ناقمة على قطاع غزة و«حماس» التي تقوده، و«حماس» نفسها محاصرة ومختنقة سياسيا وماليا، والسلطة الفلسطينية في الضفة حائرة بين ضياع البوصلة وفشل رهانها على المفاوضات، والأزمة المالية المتواصلة، وتآكل رأسمالها السياسي والوطني... وكل ذلك على خلفية الانقسام الفلسطيني والعزل الجغرافي والسياسي والوظيفي المتواصل لقطاع غزة وفصمه عن الوطن الفلسطيني.

نتيجة الحرب فاجأت نتانياهو وإسرائيل برمتها، وحققت حتى الآن عكس ما هدفت اليه وربما اكثر. فمن ناحية اولى وأساسية اعادت هذه الحرب قضية فلسطين والفلسطينيين إلى واجهة الحدث العالمي، ونفضت الغبار عن مركزيتها، سواء الاقليمية او الدولية. انطلق الغرور العسكري الاسرائيلي ووحشيته الى ابعد مدى بسبب توتره الشديد نتيجة انعدام «النزهة العسكرية» التي املها في قطاع غزة، وجرّم ذلك الى مواجهة الرأي العام العالمي الذي ذهل لما تقوم به «الدولة الديموقراطية الوحيدة» في الشرق الاوسط. ففي قصفها وتدميرها للمدارس والمستشفيات وآلاف بيوت المدنيين كانت اسرائيل تقدم نسختها «الداعشية» او «الاسدية» الخاصة بها. وبفضل الاعلام العادي والاجتماعي المعولم، اتسع نطاق التأييد للفلسطينيين وعادت الروح الى قضيتهم من جديد.

اقليميا، عادت القضية الفلسطينية لتقضّ مضاجع العرب الذين ارادوا دوما الإتكاء على وسائد التراخي والتخلي المتمثلة في إحالة الموضوع كله إلى الفلسطينيين والرضى بما يرضون، وتركهم يخوضون معاركهم في السياسة والحرب وحدهم. انكشف وضع الانظمة العربية واحترق كثير من سياسييها امام الإحراج المتراكم، ويدفع ذلك كله في الوقت الراهن إلى تحريك الكتلة العربية الساكنة ولو في الحد الادنى. واستطاعت اسرائيل من خلال الحرب ان تجمع ضدها ولو موقتا مواقف دول عربية واقليمية متناقضة، من ايران وتركيا، الى مصر ودول الخليج، وصار لزاما على كل من هذه الدول ان تظهر موقفا افضل من الاخرى تجاه فلسطين.

فلسطينيا، حققت اسرائيل وعلى عكس ما استهدفت تماما تعزيزا شبه فريد للموقف الفلسطيني لم تشهده الساحة الفلسطينية منذ الانقسام عام 2007. فعوض ان تكرس الانقسام الفلسطيني وتقضي على حكومة التوافق الفلسطيني وتزيد من عزل «حماس»، رسخت هذه الحكومة، واضطرت السلطة لان تتجه نحو مربع «حماس» والمقاومة. وما برز حتى الآن من اداء جماعي في الموقف الفلسطيني وتفويت الفرص على اسرائيل للعب على التناقضات الفلسطينية يعتبر انجازا كبيرا، ومحرجا لإسرائيل. وبسبب هذا الموقف الجماعي، فإن المطالب التي قدمتها «حماس» والمقاومة على طاولة المفاوضات في القاهرة اصبحت هي المطالب الفلسطينية الجماعية، وعلى رأسها فك الحصار.

المهم في المسالة الآن هو الا تُعاد القضية الى ادراج النسيان، وأن يستمر الموقف الفلسطيني موحداً الى ما بعد مفاوضات التهدئة. ليس الهدف الوطني الفلسطيني اسقاط نتانياهو ولا الانخراط في اللعبة السياسية الاسرائيلية، بل إجبار كل الاسرائيليين على إعادة موضعة القضية في جوهر وجودهم ونقاشاتهم، وليس كأداة انتخابية. كما ان ما سيتحقق في القاهرة حتى لو كان جزئيا بالنسبة الى قطاع غزة يجب ان يكون البداية في استراتيجية هجومية جديدة تقودها حكومة التوافق، ويكون احد اهم اسلحتها جر اسرائيل الى المحكمة الجنائية الدولية، ثم مواصلة الضغط واستثمار المناخ الذي ولدته حرب غزة وصمودها.

عن «الحياة» اللندنية

الشرق الأوسط.. الجحيم!

هاشم عبد العزيز

بينما كانت جماعات "الدولة الإسلامية" في العراق تتدافع في مناطق سيطرتها لتصفيتها من ابنائها، ترويعاً وتشريداً وقتلاً وذبحاً وتدميراً طال المساجد والكنائس والمعالم والآثار التاريخية الخالدة منذ آلاف السنين، كانت الآلة العسكرية الجهنمية الصهيونية تمطر غزة بقذائف الموت والدمار التي حولت أجساد الضحايا من الأطفال والنساء والشيوخ في الأغلب إلى أشلاء متناثرة، والمنازل والمدارس والمستشفيات والمساجد والكنائس إلى انقاض من الدمار الهائل.

السؤال هنا: هل يعود تزامن هذه الجرائم إلى الصدفة او إلى تشابك وتواصل وتداخل؟ قد يبدو السؤال هكذا لدى البعض أقرب إلى حكم مسبق لم يبن على قرائن، ولهؤلاء كامل الحق إذا ما أشرنا إلى أن توقيت العدوان الصهيوني على غزة تحدد على الوضع العربي المتدهور والمضطرب في غير بلد عربي والمغري الذي شجع نتنياهو وأركان حربه على الاعتقاد انه الوضع المناسب لتحقيق اقصى المكاسب في غزة، وفي الأبرز تصفية المقاومة الفلسطينية بأقل، إن لم يكن من دون خسائر، لكن هذا التأكيد لا ينفي ولا يلغي ما هو جامع بين هذه الجرائم.

هنا يكون مناسباً الإشارة إلى أن المنطقة تشهد موسم حصاد للمشروع الأميركي الذي كان أطلق منذ سنوات عديدة بمسمى "الشرق الأوسط الجديد" بشعارات براقة عن التغيير والحرية والعدالة والكرامة والديمقراطية وحقوق الإنسان.

لقد كانت هذه الشعارات مغرية لأوساط عدة ومبهرة للبعض في هذه المنطقة للخلاص من معاناتهم والخروج إلى افق الحياة الإنسانية الكريمة، ولفترة تمكنت الآلة الإعلامية من إشاعة الاعتقاد بأن كل شيء سيتغير في القريب العاجل، وأن أمريكا عازمة على إنقاذ أبناء هذه المنطقة من شدة تخلفهم وآلام معاناتهم بإرادتها وقوتها العتيدة، فكيف سارت الأمور؟

لقد أطلقت الولايات المتحدة مشروعها عملياً في غير بلد عربي بإحياء الانقسامات والصراعات القبلية والعشائرية والمذهبية والطائفية والدينية والسياسية، وجندت من خلال استخباراتها جماعات ومتظلمات وعقدت صفقات مع طامحين إلى السلطة بأي ثمن، كما الإخوان المسلمين، وكان اغلب من انخرط في هذه العملية يرتدون اقنعة دينية لخداع الأغلبية الساحقة من الناس وتشويه الدين الإسلامي في الآن ذاته. وهنا يمكن التأكيد انه، وفي النظرة إلى ما جرى ويجري في هذه المنطقة، ليس هناك شرق أوسط جديد ولا كبير، بل هناك إعادة إنتاج للمشروع الصهيوني القديم.

لقد غاب عمن سقط في الفخ الأمريكي مجرد النظرة إلى ما تفعله الولايات المتحدة في المنطقة قبل السقوط في حبائل مغريات ما تقول.

الولايات المتحدة تحمي الكيان الصهيوني حتى من العقوبات القانونية الدولية، وهي تدعم سياسته بما في ذلك جرائم حربه وجرائمه ضد الإنسانية، فكيف بمن يحمي ويدعم كياناً استعمارياً فاشياً وعنصرياً أن ينتصر للقضايا الإنسانية؟

والكل يعلم كيف وجد هذا الكيان على حساب الشعب الفلسطيني في أرضه وكامل حقوقه وأن ذلك تم في سياق مشروع استعماري صهيوني لإيجاد هذا الكيان ليكون عازلاً للتواصل العربي مشرقاً ومغرباً وهذا الدور أدته "إسرائيل" خلال العقود الستة المنصرمة لا بقدرتها وحسب، بل وبدعمها من حلفائها وشركائها بالأساس، ولذلك فإن إعادة إنتاج هذا المشروع راهناً يرمي في ما يرمي أمريكياً إلى الهيمنة والسيطرة على هذه المنطقة بثرواتها، وصهيونياً أن تصير "إسرائيل" في المنطقة "عظمى" بإمكاناتها وقواتها التدميرية أمام حالة عربية موبوءة بالصراعات والخلافات التناحرية والانقسامات المفتوحة على دويلات مذهبية وقبلية وعشائرية.

من هذه الزاوية يمكن النظر إلى مغزى تزامن مجازر "داعش" في العراق ومذابح "إسرائيل" في غزة باعتبارهما وجهين لجحيم الشرق الأوسط الذي زاد عن حده لتأتي قوة إرادة الحق الفلسطينية لتؤشر على بدء ارتداد اندفاعه على من ينفخون في كير لهيبه.

عن «الخليج» الإماراتية